إشكالية الاغتراب في رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني
سيرورة السرد وسؤال الكينونة

أ. عبدالله بن صفية
جامعة باتنة 01

مهاد:

لقد فرضت الرّواية الفلسطينية حضورها في عوالم الإبداع السردي باستيفائها شروط البناء والجمال، ووطّنت جدارتها في نطاق التميّز الذي صنعته داخل مجتمع القراءة، حيث استطاعت وفي فترة زمنية قياسية، بالنظر إلى زمن ظهورها، أن تتهجّى ماضي القضية وحاضرها ومستقبلها، وأن تنقل إلى القارئ كثيرا من تصوّرات المبدعين الفلسطينيين للوجود، وتوصيفاتهم المختلفة للمراحل التي عاشها الفلسطيني، داخل نطاق فكري تحدّده مقتضيات الرؤيا الإبداعية، متوسلة لأجل ذلك تشكيلات سردية معبرة بذاتها عن كثير من القضايا التي ترسم معالمها السياقات المنتجة للنص التي انفتق في كنفها.

ويعدّ "غسان كنفاني" الذي أطلّ يوم الخميس، التاسع من نيسان عام 1936 على زيتون عكا أحد أبرز منتجي هذه النصوص. ولأنّه سليل أسرة مثقفة ووطنية، مؤمنة بالقضية الفلسطينية، فقد تولّدت في نصوصه العديد من الأسئلة المرتبطة بالوطن والفرد والهوية، وإلى جانبها العديد من الإجابات والرؤى المرتبطة بالواقع الفلسطيني المغترب؛ فخلف الأحداث العينية التي انتقاها، والوقائع والحركات النصية الظاهرة التي شكّلها، وعبر المتخيّل الروائي الذي استشفّ من خلاله الواقع العميق، الكامن في كلّ فرد، جسد "غسان" حياة الفلسطيني وتقفّى حالاته بعد فقدانه لوطنه، متمثّلا مع هذه الحياة بواطن الشخصية الفلسطينية، والحالات النفسية التي عاشتها وتعيشها في ظلّ استلاب الأرض ومحاولات مصادرة الهوية من طرف المحتل بشتى السبل التي انتهجها.

وفي هذا المساق، تولّدت للبحث مقامات السؤال عن الذات الفلسطينية ممثلة بشخوص سردية تخلّقت داخل أحد أكثر المتون الرّوائية إجلاء لها، هو متن "رجال في الشمس" للروائي "غسان كنفاني"، وستتمّ الإجابة على ذلك من منظور نقدي، يتّخذ "الاغتراب" مرتكزا بحثيا بما يطرحه من مفاهيم وتجليات لصيقة بالواقع الفلسطيني، محيلة إليه، سيسعى الباحث إلى استشفافها تشكّلا ودلالة فيما يأتي من عناوين.

أولا: مفهوم الاغتراب:

للتوصل إلى تعريف مناسب لمصطلح الاغتراب تقتضي المنهجية العودة إلى المعاجم والقواميس اللسانية العربية أولا للتعامل مع المفردة كما وردت فيها، لما لذلك من أهمية بالغة في تمكيننا من الوقوف على دلالاتها على النحو الذي قد رسمه لها أهلها، قبل تتبع مسارها الدلالي الذي تطورت عبره، وما باتت تعنيه في رحلتها التطورية في غيرها من المؤلفات، والتي إن نأت فيها عن استخداماتها الأولى لن تنأى عن وجه من الأوجه الدلالية التي رسمها لها العربي في أوّل عهدٍ له بها.

الاغتراب افتعال من الغربة، ويقصد به النأي عن الوطن، وغَرَبَ فلانٌ بمعنى تنحّى، وأَغرَبته نحيته، ويقال غَرَّبَ في الأرض إذا أمعن فيها، والغُربة: النوى البعيد، يقال شقت بهم غربة النوى[1]، والغَرب هو المغرب والذهاب وكذا التنحي، وأوّل الشيء وحدُّه.[2] وأغرَب القوم أي ابتعدوا وانتووا، والغرباء هم الأباعد، والغريب الغامض من الكلام، والاغتراب هو الابتعاد عن الوطن، واغترب الرجل: نكح في الغرائب، وغوارب الماء أعاليه والغريب شديد السواد[3].

والاغتراب شعور قديم قدم وجود الإنسان على أرض الكون، وقد تبلورت دلالاته بداية في الفكر المسيحي وفي الكتابات اللاهوتية، ليتخذ فيما بعد صورا ذهنية جدّ معقّدة لتعقّد الإنسان ذاته.

فالاغتراب متواجد في كلّ المجتمعات، وفي كلّ الثقافات وحاضر في جلّ المجالات، وهو ما جعل الوصول إلى تعريف جامع مانع له من أصعب المهام وأعوصها، خاصة وأنه يتّصل اتصالا وثيقا بالإنسان الذي فقد روح التناغم في حياته، فلا يوجد من البشر من لا يعيشه كحالة أو كمجموعة من الحالات المركّبة في ظلّ ظروف لا إنسانية فرضتها التغيرات الحديثة والمعاصرة التي طرأت على المجتمعات.

لقد كان "هيجل" السبّاق إلى استخدام مصطلح الاغتراب في إطار منهجي له مقاييسه المستندة إلى حقائق فكرية وأخرى فلسفية "باعتباره خاصية وجودية متأصلة في طبيعة وجود الإنسان في العالم"(4). ويذهب "هيغل" إلى أنّ الاغتراب يكمن في "أن يضيّع الإنسان شخصيته الأولى ويصير إنسانا آخر غير الأوّل، فالإنسان يضيّع نفسه عندما يصبح غريبا عنها، أي عندما يفقد حريته ويصبح مصهورا في مجتمع لا يعترف له بأيّ استقلال ذاتي"(5). وفي هذا المساق يصوّره "هيجل" بطبيعة مزدوجة يستخدم لهما مصطلحين مختلفين:

1- المصطلح الأول: (entfremdung) بمعنى الانفصال أو الانقسام وعدم التعرف على الذّات وهو معنى سلبي.

2- المصطلح الثاني: (entaeusserung) وهو المفهوم الأساس في ظاهريات العقل الكلي وهو التّخارج أو التّموضع، وهو اغتراب ضروري، وإيجابي حيث جعل التخارج كعملية ميتافيزيقية وشرطا لوجود الطبيعة والتاريخ(6).

أكسب "هيجل" الاغتراب مفاهيم متنوعة أصبحت مرتعا للعديد من النفسانيين والاجتماعيين، للبحث والتأصيل، ولم يكتف "هيغل" بالاغتراب في علاقته بالدين والدولة والذات وحسب، بل تجاوز تصوّره إلى اغتراب الفرد عن ثقافته، ليأخذ الاغتراب بذلك ملمحا روحيا جديدا. ويرى "هيجل" في هذا الدرب الروحي بأنّ تحقيق الطّبيعة الجوهرية للإنسان يستدعي استنطاق كينونته في بنية اجتماعية تتضمّن أنساقا تتوافق وطموحاته، وإذا انعدمت شروط الوجود، فعلى الفرد أن يختار مسارا يحقّق به كينونته، وعليه ألّا يكتفي بالوجود الجسدي وهذا أهم باعث يدفع به إلى قهر الاغتراب والسمو بالذات التي عليها أن تثبت مغزى الحياة والقيمة الفعلية والأبدية لهويتها.

وأخذا بالتخصص، يمكن القول بأنّ ظاهرة الاغتراب قد فرضت نفسها على الرّواية العربية الحديثة والمعاصرة، حيث نلحظ أعمالا روائية كثيرة في الوطن العربي قد استشكلت هذه الظاهرة وتشرّبتها، سواء على مستوى بنيتها أو على مستوى دلالاتها، كلٌّ نصّ حسب رؤيته. ومن هذه الرّوايات نذكر على سبيل التمثيل "زينب" لمحمد حسين هيكل، "ثرثرة فوق النيل" لنجيب محفوظ، "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم "الأرض" لـــعبدالرحمن الشرقاوي، "الحرام" ليوسف إدريس، "نجمة أغسطس" لصنع الله إبراهيم، "المتشائل" لإميل حبيبي، "رجال في الشمس" لغسان كنفاني، وغيرها من النصوص.

ثانيا: "رجال في الشمس" بين الواقع والمغامرة:

"رجال في الشمس" هي رواية يقوم وتدها على دراسة الموقف النقدي المتبنّى من قبل الروائي في السنوات التي أعقبت نكبة 1948، حيث كانت ظروف الحياة وما صحبها من حالات نفسية مرّت بالشعب الفلسطيني قاسية إلى حدّ جعله يعيش سنوات طويلة في حالة من الدهشة، في وضع يحاول فيه استيعاب ما حصل، مفكّرا في كيفية للخروج من وضعه الاستعماري الجديد.

من أتون هذا الجو الضبابي، النائس بين مطلب استرداد الأرض والرحيل منها طلبا للعيش الكريم خارجها "خرجت هذه الرواية لتكون محاكمة نقدية لمجمل الظروف الخاصة"[7] التي يحياها الفلسطيني في ظلّ الاحتلال الصهيوني، وقد توسّل الروائي لذلك شخصيات ثلاث رئيسية شكّلت أسماؤها عناوين القسم الأوّل من الرّواية جاءت على الترتيب الآتي:

- أبو قيس.
- أسعد.
- مروان.

أمّا القسم الثاني فيحوي ثلاثة فصول هو الآخر بأسماء جمادات تحمل في علاقتها بالمتن السردي دلالات عميقة ترتبط بالمسار المأساوي الذي سيجمع الشخصيات المؤطرة حيواتها اجتماعيا في العناوين السابقة:

- الطريق.
- الشمس والظل.
- القبر.

وبين القسمين تبدّى عنوان وسط، جامع، يمثل نقطة الاتصال وهمزة الوصل، تحت مسمى "الصفقة"، وهو الجزء الذي برزت فيه شخصية أبو الخيزران (السائق) وتجمّعت فيه الشخصيات الروائية يحدوها المطلب المشترك (الهجرة إلى الكويت في الخفاء) والمصير الواحد.

يتشكّل القسم الأوّل من لوحات ثلاث تجسد كلّ واحدة منها الأطر الاجتماعية التي تخلّقت فيها كلّ شخصية من الشخصيات الثلاث، وقد سعت من خلال توصيفاتها الدقيقة إلى رصد الدوافع الحقيقية الكامنة خلف الهجرة نحو الكويت، وموجز ما قدمته الرواية عنهم يمكن عرضه فيما يأتي:

أبو قيس: عجوز فلسطيني، عاش شطرا من حياته في وطنه قبل الاحتلال، ولأنّه تذوق معنى أن يكون المرء في أرضه حرا فهو دائم الحنين إلى فلسطين وإلى أهله فيها ... كان يعشق الأرض عشقا لا مثيل له "كلّما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيّل إليه أنّه يتنسم شعر زوجته حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد ... الرائحة إياها، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد، وفرشت شعرها فوق وجهه و لم يزل رطيبا ..."[8]، وهو عشق الأرض الذي جعله لصيقا بوطنه، متحمّلا أوضاعه المزرية لمدة جاوزت العشر سنوات قبل أن يقرّر خوض المغامر بالبحث عن الرزق خارجه. فبعد النكبة طحنه الفقر والحاجة والحرمان إلى درجة رأى فيها موت معلم القرية (سليم) نعمة النعم "أتوجد نعمة إلهية أكبر من هذه؟ صحيح أنّ الرجال كانوا في شغل عن دفنك، وعن إكرام موتك ... ولكنك على أيّ حال بقيت هناك ...بقيت هناك، وفّرت على نفسك الذلّ والمسكنة، وأنقذت شيخوختك من العار"[9].

أسعد: شاب فلسطيني، ذاق مرارة المنفى خارج وطنه، وطعم العيش في خوف من النظام الأردني الذي أمر بالقبض عليه لمواقفه السياسية الصريحة المعادية للصمت والسلبية إزاء القضية الأم، وهو ما جعله يختار الكويت منفى اختياريا، آملا الخلاص من المتابعات والملاحقات التي تعرض لها على أرضه وخارجها.

مروان: مراهق فلسطيني لم يتعد عمره خمسة عشر عاما، وليد فترة الاحتلال، اختار الهجرة إلى الكويت للظروف الاجتماعية المزرية التي ترعرع فيها وبسبب التفكك الأسري الحاصل بعد زواج والده من امرأة ثانية وتخليه عن أمه.

أبو الخيزران: شخصية جشعة، انتهازية، مادية، وهي في النص الروائي بمثابة الطرف الثاني في الصفقة، فأبو الخيزران هو صاحب الشاحنة التي ستقل كلّا من الشخصيات الآنفة الذكر إلى الكويت باسخدام الصهريج الذي لا يفتش في العادة عند مراكز التفتيش الحدودية.

عُقدت الصفقة بين الشخصيات في مدينة البصرة، وبعد الاتفاق على المبلغ، وعلى الطريق التي سيسلكها أبو الخيزران باتجاه الحدود، انطلقت الرحلة التي لم يطمئن أبو قيس لجزئها الأخير المتعلّق بإغلاق الصهريج عند نقاط التفتيش، يقول بهذا الصدد: "اسمع يا أبا الخيزران هذه اللعبة لا تعجبني ... هل تستطيع أن تتصوّر ذلك في مثل هذا الحر، من يستطيع أن يجلس في خزان ماء مقفل؟"[10]، ليردّ أبو الخيزران مبدّدا الشكوك: "لا تجعل من القضية مأساة، هذه ليست أوّل مرة، هل تعرف ما الذي سيحدث؟ ستنزلون إلى الخزان قبل نقطة الحدود بصفوان بخمسين مترا، سأقف على الحدود أقلّ من خمس دقائق، بعد الحدود بخمسين مترا ستصعدون إلى فوق، وفي المطالع على الحدود الكويتية تتكرّر المسرحية لخمس دقائق أخرى، ثمّ هوب ستجدون أنفسكم في الكويت"[11] لقد ترك أبو قيس قلبه يسقط قليلا قليلا في أسر كلمات أبو الخيزران، متناسيا شكوكه، مسايرا مروان وأسعد الراغبان في السفر مهما كلّف الثمن، فأظهر ألفته لهما، وموافقته على الرحلة المحمومة التي سيخوضها معهم.

لقد نجح أبو الخيزران في نقطة التفتيش الأولى، وأخرج زبائنه نصف موتى: "كان وجه أسعد محمرّا مبتلا وكان بنطاله مغسولا بالعرق، أما صدره فانطبعت عليه علائم الصدأ فبدا كأنّه ملطخ بالدم، نهض مروان وهبط السلم الحديدي بإعياء، وكانت عيناه حمراوين، وكان صدره مصبوغا بالصدأ، وحين وصل إلى الأرض، وضع رأسه فوق فخذ أبي قيس ومدّد جسده ببطء إلى جانب العَجل ... ولولا أنّ صدر مروان كان يرتفع ويهبط، ولولا أنّ أبا قيس كان يتنفس بصفير مسموع، لخيّل إليه إذن أنهما ميتان"[12].

تابعت الشخصيات طريقها نحو نقطة التفتيش التالية في حالة من العجز والعياء والخوف، يحدوهم إليها اليأس من العودة إلى نقطة التفتيش الأولى، معلنين انهزامهم فوق الأرض الفاصلة بين الحاجزين / الموتين "كانت السيارة الضخمة تشقّ الطريق بهم وبأحلامهم وعائلاتهم وحطامهم وآمالهم وبؤسهم وبأسهم وقوتهم وضعفهم وماضيهم ومستقبلهم، كما لو أنّها آخذة في نطح باب جبارة لقدر جديد مجهول وكانت العيون كلّها معلقة فوق صفحة ذلك الباب كأنّها مشدودة بحبال غير مرئية"[13].

هاهم يترلون مرة أخرى في عالمهم الصغير (صهريج الشاحنة)، داخل وطنهم المغلق، الذي يحيل إلى قدر "الفلسطيني المنفي، المهدّد والذي يخوض صراعا خطرا مع قدر حقيقي (مجهول وجبار) وفي النتيجة يفلت منهم اقتياد قدرهم، لأنهم ضحايا قوة عظمى"[14] قرنت مصائرهم عند نقطة التفتيش ليختنقوا داخل الصهريج إثر تأخر السائق عنهم مُكرها، فجمعت جثثهم في مكب لنفايات مدينة من المدن الكويتية الحدودية، كوّمها أبو الخيزران ساحبا من الجيوب ما تبقى من النقود، سائلا نفسه، مخاطبا الجثث: "لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ وفجأة بدأت الصحراء تردّد الصدى: لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟"[15] وهكذا تضع المأساة نهاية للأصوات الثلاث، وتسكت إلى الأبد آمالهم وآمال عائلاتهم.

ثالثا: أنماط الاغتراب:

1- الاغتراب عن الذات: وهو الحالة التي يصبح فيها الشخص غير مدرك لما يشعر به حقيقة، واغتراب الذات من وجهة نظر "فروم"و"هيدغر" "يتضمّن انعدام الصلة بين الفرد وجزء حيوي وعميق من نفسه أو ذاته"[16] وهو ما يتولّد عنه

مستويان من الاغتراب؛ الأوّل يتجاوز فيه الشخص المجتمع ويتحرّر من حلم الجماعة وقيمها التي قد لا تتلاقى وقيمه الإنسانية، فيصبح شخصا مكتفيا بذاته ويعيش لذاته، أمّا المستوى الثاني فيتجسد في الشخص المنبوذ والمهمّش اجتماعيا، فلا ذاته من المجتمع في شيء ولا أدوات التعامل مع ذاته ممكنة.

1-1/ الشخص المكتفي بذاته: إنّ الشخصية المكتفية بذاتها لا تعي اغترابها، وتقف عند حدّ المعاناة والألم "فهي شخصية نجدها تستغرق في همها الشخصي أو أوهامها الذاتية، فهي تغفل عما يحيط بها، وتفقد المسافة اللازمة لتأمل آمالها من أجل الخروج بحلّ لها أو الوقوف على أسباب اغترابها"[17]، كشخصية "أبو قيس" التي بدأها الاستغراق في الذات نتيجة الأوضاع المزرية التي تعيشها مع عائلتها وفي محيطها الاجتماعي الموبوء، ودخل في حالة من فقدان للوعي، ومرحلة متقدمة من التيه، "لقد احتجت إلى عشر سنوات كي تصدق أنك فقدت شجيراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها"[18] و"لا بدّ أنّ ثمة أزقة وشوارع ورجالا ونساء وصغارا يركضون بين أشجار ... لا ..لا .. لا توجد أشجار هناك"[19].

إن هذا الوجه من الاغتراب هو وليد علاقة اجتماعية تجبر الذات على أن تسير وفق ما يريده الآخر لها وليس وفق ما تريده هي، فتفقد بذلك حريتها، وتنكسر آفاقها وتطلعاتها لتصالبها مع آفاق وتطلعات الآخر الذي يملك القوة ويستخدمها في فرض وجوده، وهو ما يشكّل ملامح اغتراب الذات وانكفاءها على ذاتها والانتصار للأنا بدل النحن وتغليبها المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العامة.

1-2/ الشخصية الباحثة عن ذاتها: تعي هذه الشخصية أسباب اغترابها، لذا نلمحها تتخذ موقفا تجابه به هذه الأسباب، وتحاول تجاوز تمظهراته، كاختراق الحرية الشخصية، الارتهان إلى الماضي، الحجر الفكري مصادرة الحق في العيش ... وبناء على ذلك نجد أنّ هذه الشخصية تسعى إلى الوقوف على مسببات اغترابها الذاتية والخارجية، متأملة ماضيها وحاضرها محاولة شقّ الطريق نحو المستقبل، مؤمنة بأنّ الحياة قائمة على الصراع ولا وجود فيها للحياد، ولعلّ شخصية أسعد كافية للتدليل على هذا الوجه من الاغتراب وذلك حين معارضتها للماضي المأساوي الذي خبرته بالحاضر الذي تسعى إلى تغيير ملامحه بالعمل وتجنب الأخطاء السابقة لشق طريق نحو القادم المستشرف.

2- الاغتراب الاجتماعي: يؤكد "هيجل" في كتابه "فلسفة الحق" أنّ الأساس المادي للانتماء يكمن في المؤسسات الاجتماعية؛ "فهي وحدها بطبيعة الحال التي تجعل الانتماء ممكنا، فالوحدة مع البنية الاجتماعية شيء جوهري بالنسبة للإنسان، ففي النظام الأخلاقي الاجتماعي يحقّق الأفراد بصفة محلية جوهرهم الخاص أو انتماءهم الداخلي"[20].

ويرى "فروم" أنّ جوهر مفهوم الاغتراب الاجتماعي هو أنّ الآخرين يصبحون غرباء بالنسبة للإنسان، فالفرد لا يستطيع أن يربط نفسه بالآخرين ما لم تكن له ذات أصيلة وإلّا سيفقد العمق والمغزى، وفي هذا السياق يطرح "فروم" سببا مفعلا للاغتراب عن المجتمع والمتمثّل في "فقدان الحرية ... والقهر الناجم عن خضوع شخص ما لشخص آخر، يمارس قواه وسلطته عليه"[21].

إنّ فقدان العلاقة بالبنية الاجتماعية يولّد تنافرا بين الفرد المغترب والمجتمع الذي يعيش وسطه، وهو المجتمع الذي يغدو بنية خارجية معارضة للذات المغتربة، ولعلّ أوّل ما يُعزى إليه الاغتراب الاجتماعي في روايتنا النموذج طغيان الجانب المادي وخضوع الشخصيات الروائية (أبوقيس/ مروان/ أسعد) لقوة أفقدتهم حرياتهم ممثلة في ظلم المحتل الصهيوني والأنظمة العربية الرافضة للفلسطينيين هذا من جهة، ومن جهة أخرى جشع المهربين وسطوتهم واحتكارهم للخيارات المتاحة، وتحكمهم في حيوات الآخرين، يقول أحد المهربين مخاطبا أسعد:

"- أنا لا أجبرك على أيّ شيء ... أنا لا أجبرك.

- ماذا تعني؟

- أعني أنّه إنّ لم تعجبك شروطنا فبوسعك أن تستدير وتخطو ثلاث خطوات وستجد نفسك في الطريق غير مطرود"[22].

وفي هذا المساق يقول "أبو الخيزران" للشخصيات الثلاث: "لقد اختلفنا إذا قبل أن نبدأ هذا ما كنت أخشاه ... عشرة دنانير لا تنقص فلسا ... السلام عليكم"[23].

إنّ هذه السطوة التي ولّدها الأطماع وتخلّقت معها الرغبة الملحة في الكسب المربح غير المشروع هي ما ولّدت للمسافرين حالة من الوضاعة والاستسلام أو ما يمكن إطلاق لفظ الاستلاب عليه، خاصة وأن اغترابهم قد تبعته غربة جغرافية داخل العراق، ناهيك عمّا يمثله الابتعاد عن الوطن (فلسطين) أو فقدانه مثلما يذهب إلى ذلك النص من خلال الفترة الزمنية التي تخيرها لبناء متوالياته السردية.

3- الاغتراب الديني: إنّ الاغتراب الديني يتأسّس على أحد دعامتين، إمّا أن يتولّد نتيجة تقزيم الذات الإلهية أو عدم الإيمان بها، وإمّا أن يتولّد نتيجة منح الإله وجودا يسع كلّ شيء ويلغي بالمقابل وجود الذات بما تتمتع به من حرية ممنوحة من طرف الخالق ذاته. وبذلك يتبدّى الاغتراب عبر ثنائية [الإفراط والتفريط]، وهي الثنائية التي يتجلّى حدّها الثاني مع الأستاذ سليم الذي يعلّم الصبية اللّغة العربية والعلوم الإسلامية وهو لا يجيد الصلاة، أو مع أبي الخيزران الذي غطّت الأموال عينيه وأعمت بصيرته يقول مخاطبا مروان: "أنا مبسوط أنك ستذهب إلى الكويت لأنّك ستتعلم هناك أشياء عديدة ... أول شيء ستتعلمه هو أنّ : القرش يأتي أولا ثمّ الأخلاق"[24] وهي العبارة التي توحي بأمداء ضياع الأخلاق في البلدان العربية بالرغم من أنّ الدين الذي يتبنّونه هو المصدر الأوّل لها. وفي موضع آخر تلبس الشخصية لبوس التفريط في أعلى مستوياته ليتضح مع لفظها اغترابها الروحي وضياعها النفسي حين تقول: "أكان من الضروري أن تتفلسف يا أبا باقر؟ [أحد حراس الحدود] أكان من الضروري أن تتقيأ كل قاذوراتك على وجهي وعلى وجوههم؟ يا لعنة الإله العلي القدير عليك، يا لعنة الإله الذي لا يوجد قط في أيّ مكان تنصب عليك يا أبا باقر ... وعليك يا حاج رضا [صاحب الشاحنة وربّ العمل] يا كذاب ... "[25].

إنّ أبا الخيزران حيث ما تحرك وحيث ما وجد، وجدت غاية مادية هو مبتغيها، فهو من أظهر حبّه الشديد للمال وطمعه في كسب المزيد ... فالرحلة وهو قائدها لم تكن إلا لتستوفي هذا الغرض، ولعلّ نهايتها حين أخذ في تقليب الجثث وسلبها كلّ ما تملك خير دليل على ذلك، وهو ما يشير ضمنا إلى دناءة أخلاقه، وطغيان المادة على قيمه. وبالاستناد إلى ما صرّح به وإلى ما فعله وما فكّر فيه نستطيع القول بأنّ أبا الخيزران شخصية فوق العادة، فوق القانون، فوق القيم والأخلاق، وعليه فهي تعاني اغترابا اجتماعيا وآخر دينيا.

4- الاغتراب الوجودي:

إنّ أبرز طرح يضعنا في ثنايا هذا النمط من أنماط الاغتراب هو طرح "تيلش" الذي ذهب فيه إلى أنّ حالة الوجود توازيها حالة من الاغتراب موجودة بالقوة، فالإنسان ليس موجودا كما ينبغي له جوهريا أن يكون، وهو بذلك مغترب عن وجوده الحقيقي دون أن يكون له دخل في ذلك، وعليه تتولّد فكرة الانعتاق من هذا الاغتراب وفكرة إحقاق الموت بجدارة بالنظر إلى أهداف الذات وأفعالها في الواقع وأهدافها المستقبلية.

انطلاقا من هذه الفكرة يمكننا أن نقسّم تجليات الاغتراب الوجودي في الرواية، والناتجة عن فكرة الموت التي كشفتها متواليات السرد في نهاية الرواية إلى ثلاثة أقسام رئيسية تعبّر كلّ منها عن حالة الشخصيات المغتربة:

أوّلا/ ما قبل الموت: وفي هذا القسم صبّ لنا "غسّان كنفاني" آراء شخصياته وأفعالها التي يحدوها الغرض الواحد من الرحلة وهو التطلع إلى الفردوس المنشود (الكويت)، وقد هانت فكرة الموت على مرارتها عند الشخصيات المهرّبة، كاحتمال وارد الوقوع، يقول أبو قيس "الطريق طويلة وأنا رجل عجوز ليس بوسعي أن أسير كما سرتم أنتم ... قد أموت"[26] ليجيب سعد: "تموت؟ ... من قال أن ذلك ليس أفضل من حياتك الآن"[27].

ثانيا/ الموت: للموت سطوته داخل النّص، وقد ورد برمزيته المحيلة إلى المعاناة والضيق والاختناق والحرارة داخل الصهريج الذي كان للشخصيات الثلاث بمثابة الملجأ الاختياري للانتقال من زمن/مكان الفقر والاضطهاد إلى زمن/مكان أكثر كرما، إلّا أنّ تحوّله إلى دلالة القبر الإجباري قتل الأحلام، وأسكن الحاضر، وأبّد الماضي التعيس الذي انتقل معهم من عوالم الفقر إلى مكبّ للنفايات.

ثالثا/ ما بعد الموت: بما أنّ الموت لم يكن منشود الشخصيات، فهو بذلك لم يمثّل خلاصا بمعناه الأتم، خاصة إذا نظرنا إلى مكان الوفاة (الخزّان) وإلى المستقرّ بعد الممات (مكبّ النفايات)، فقد قدّموا أنفسهم ليكونوا جثثا هامدة بين نقطتي التفتيش، صانعين لأنفسهم أكفانا من الصمت والخوف والفرار.

على سبيل الختام:

مثّلت رواية "رجال في الشمس" موقفا نقديا لظروف حياتية ونفسية قاسية مرّت على الشعب الفلسطيني، إلى درجة أصبح الهمّ فيها، والمطلب العزيز هو الخروج، والخروج فقط، من هذه الظروف، أمّا والعودة إلى الوطن فهي الحلم الكامن في النفس؛ لأنّ الغربة -بمفهومها المكاني- كانت لها سطوتها على مستوى المتن الحكائي بمثل حضورها وسطوتها على مستوى الواقع الفلسطيني، ولعلّ هذا ما أدّى ببعض النقاد إلى القول بأنّ رواية "غسان" واقعية، بعيدة عن أيّ بُعد رمزي.

إنّ الاغتراب بتشكّلاته ودلالاته المبحوث عنها في نصّ "رجال في الشمس" مردّها الواقع والظروف القاسية التي يعيشها "غسان كنفاني" ذاته كفرد فلسطيني من جهة، وكمثقف صاحب فكرة من جهة أخرى؛ وهو في الحالة الأولى شريك مع كلّ الفلسطينيين، أمّا في الحالة الثانية ففرد له خصوصياته الفكرية والإيديولوجية، والتي تولّد عنها إيمانه القوي بأن التغيير لا يكون إلا بتوجيه الرصاص إلى العدوّ، بدل الفرار والموت على غير أرض الوطن. وبغض النظر عن الذات الميّالة إلى الدّعة، وعن موقف المجتمع الفلسطيني والعربي والإسلامي من القضية، فإنّ دعوة "غسان" صريحة بقرع جدران كلّ خزان بدل النزول من فوهة الاغتراب بأشكاله وأنماطه المختلفة إلى جوف الموت.

الهوامش والإحالات:

(1)- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت – الكويت، ط1، 1980، ج: 4. ص: 410.

(2)- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2004. ص: 146.

(3)- ابن منظور، لسان العرب، الدار المتوسطية، تونس- تونس، ط1، 2005، ج1، مادة: (غَرَبَ).ص:639.

(4)- زينب محمود شقير، مقياس الاغتراب النفسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 2002. ص: 02.

(5)- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان،ط1، 1982. ص: 765.

(6)- محمد عباس يوسف، الاغتراب والإبداع الفني، دار غريب، القاهرة – مصر، ط1، 2004. ص40.

(7)- أحمد أبو مطر، الرواية في الأدب الفلسطيني، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 1980. ص: 230.

(8)- غسان كنفاني، رجال في الشمس، الآثار الكاملة، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ط2، 1980. ص: 37.

(9)- المصدر نفسه. ص: 48.

(10)- المصدر نفسه. ص: 96.

(11)- المصدر نفسه. صص: 98/97.

(12)- المصدر نفسه. صص: 122/121.

(13)- المصدر نفسه. ص: 129.

(14)- حيدر توفيق بيضون، غسان كنفاني الكلمة والجرح، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1995. ص: 79.

(15)- غسان كنفاني، رجال في الشمس. ص: 152.

(16)- يحي العبدالله، الاغتراب – دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، دار المشرق، عمان- الأردن، ط1، 2005. ص: 33.

(17)- المرجع نفسه. ص: 36.

(18)- غسان كنفاني، رجال في الشمس. ص: 46.

(19)- المصدر نفسه والصفحة.

(20)- يحي العبدالله، الاغتراب – دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية. ص: 73.

(21)- السيد علي الشتا، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، عالم الكتب الحديث، الأردن، 1984. ص: 44.

(22)- غسان كنفاني، رجال في الشمس. ص: 53.

(23)- المصدر نفسه. صص: 94/93.

(24)- المصدر نفسه. ص: 84.

(25)- المصدر نفسه. ص: 140.

(26)- المصدر نفسه. ص: 48.

(27)- المصدر نفسه والصفحة.